الفصل الثالث:

الطفـلُ: قاعدةُ الانطلاق

في تتبعنا فيما سبق لوجوه النقص والقصور في مسيرة الأمـة الإسلامية، وما اعتورها من الانحرافات والتشوهات، علينا ألا ننسى أنّ عطاء الإسلام للإنسانية وتفاعله معها قد استمر، على مرِّ العصور، وعلى الرغم من كلِّ الظروف. فالقاعدة الإسلامية البشرية العريضة ظل يسري في أوصالها على الدوام -بمقدارٍ من التفاوت بين فترة وأخرى، وقطر وآخر- كثيرٌ من روح الإسلام وعقائده وقيمه ومبادئه الأساسية.

هذه البقية من روح الإسلام هي التي تفسِّر ما بقي في كيان الأمة وهويتها من قوةٍ وطاقةٍ وقيمٍ وغاياتٍ ساميةٍ، إذا ما قورنت -لقرون عديدة- بالأمم الجاهلية والوثنية من حولها، ممّا جعل حضارتها، برغم كل التشوهات والانحرافات التي أصابت عقليتها ونفسيتها وأنظمتها، الحضارةَ الأعلى لقرون عدّة، قدّم خلالها علماء الأمة ومفكروها وفلاسفتُها وصُنَّاعها ألواناً وآفاقاً جديدة للتقدم والإبداع العلمي. وما كان للحضارة الإنسانية أن تتابع مسيرتها التي حققتها اليوم، وأن تصل إلى ما وصلت إليه، دون ذلك التراث العلمي الحضاري العريق.

ولكنّ ذلك كله يجب ألا يصرف نظرنا النقدي هنا عن تلمس الأسباب التي أضعفت روح الدفع الإسلامي، وسمحت بتخلُّف الأمـة وانحطاط أدائها، في الوقت الذي انطلقت فيه الأمم الأخرى متقدمة ومتحدية أمة

الإسلام، ومتحكمـة في مقاديرها على الحال المؤسف الذي نراه ونشاهده اليوم.

أولاً: حركات الإصلاح الإسلامي والحاجة إلى التقييم

إذا أمعنا النظر في تاريخ الأمة، سنجد أنّ محاولات الإصلاح قد تعددت، وتصدى لها العديد من العلماء والمفكرين والقادة والسلاطين، على أسس وغايات: دينية، وسياسية، ومدنية. ومن أهمها محاولةُ أبي حامد الغزالي (توفي ٥٠٥هـ/ ١١١١م) الذي صرف همّه إلى تصحيح مسار الفكر الإسلامي، وتخليصه من تهويمات الفكر الفلسفي الإغريقي الميتافيزيقي الذي ضلَّلَ الفكرَ الإسلامي، واستنـزف طاقته فيما لا جدوى منه في رؤية الإسلام.

وفيما كشف "تهافت الفلاسفة" ذلك البُعد، جاء "إحياء علوم الدين" للعمل من أجل استعادة الأمة طاقتها الروحية؛ باستعادة العلاقة الإيجابية والتمازج بين المعرفي الشرعي والوجداني الإسلامي، وبتخليص العقل المعرفي الشرعي من تشوهات الفلسفة الميتافيزيقية الإغريقية وتحريفاتها. والتزام الشرعي الإسلامي ممتزجاً -وَفْقَ رؤيته- بالزهد الإسلامي، منزَّهاً من انحرافات التصوف الفلسفي الحلولي الذي ورثه المسلمون من الفلسفة الميتافيزيقية اليونانية.

وللأسف فإن محاولات الغزالي لم تنجح لأنّها لم تكن إصلاحاً منهجياً جذرياً لمنطلقات المعرفة الإسلامية، إذ بقيت جهوده الإصلاحية الرائدة في دائرة التأملات الفكرية النظرية التي لم تحقق متطلبات التغيير الجذري الفكري الاجتماعي الإسلامي.

وجاء بعد الغزالي مفكرون ومصلحون كثيرون؛ منهم شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية والإمام علي بن أحمد بن حزم والعلامة عبد الرحمن بن خلدون. ومن هذه الجهود تلك الإصلاحات السياسية والإدارية والعسكرية التي قام بها أمراء آل زنكي وصلاح الدين الأيوبي، والتي مكّنت من تجديد قدر كبير من طاقة الأمـة الروحية والمادية؛ مما مكّنهم من هزيمة جيوش الصليبيين الغازية، وتحرير الأرض، واستعادة المقدسات.

وبدخول القبائل التركية البدوية ذات القوة والشكيمة في الإسلام تجددت دماء الأمـة، ثم ما تلا ذلك من قيام دولة بني عثمان وتنظيماتها الإدارية والعسكرية التي رفعت راية الإسلام في شرق أوروبا، وإن رزحت بلاد العرب وما جاورها من بلاد المسلمين في ركودها وسباتها. واستمرت دولة الإسلام في إسبانيا في تمزقها وتناحر قبائلها وأعراقها وأمرائها وملوك طوائفها، حتىٰ دمرها الإسبان. ثم غرق العالم الإسلامي منذ القرن الثامن عشر الميلادي في التخلُّف والعجز والانحطاط، وتراجع أمام قوة الأوروبيين المتنامية.

ثم أخذت كوامن المقاومة والتطلع إلى الإصلاح والتغيير تتحرك في الأمة الإسلامية، ومن ذلك محاولة الشيخ محمد بن عبد الوهاب (١٧٠٣-١٧٩٢م) إحياء فكر ابن تيمية، وحركة محمد بن علي السنوسي في ليبيا (١٧٨٧-١٨٥٩م)، وحركة الإمام محمد المهدي في السودان (١٨٤٣-١٨٨٥م)، وحركة عبد الحميد بن باديس الجزائري (١٨٨٩-١٩٤٠م) الإسلامية الإصلاحية التي أسست لتحرير الجزائر ثم استقلالها عام ١٩٦٢م. ومنها إصلاحات سلاطين آل عثمان المدنية والعسكرية، بدءاً بالسلطان سليم الثالث

(١٧٦١-١٨٠٨) وانتهاءً بالسلطان عبد الحميد الثاني (١٨٤٢-١٩١٨م). والإصلاحات المدنية التي أدخلها والي مصر الخديوي محمد علي باشا (١٧٦٩-١٨٤٩م) على النمط الأوروبي في الجوانب الاقتصادية والزراعية والصناعية والتعليمية والعسكرية، وحركة جمال الدين الأفغاني (١٨٣٨-١٨٩٧م) الإصلاحية الفكرية السياسية، ومدرسة الشيخ محمد عبده (١٨٤٩-١٩٠٥م) في الإصلاح الديني والثقافي، وإجراءات الجنرال كمال باشا أتاتورك (١٨٨١-١٩٣٨م) العلمانية في تحديث تركيا على النمط الأوروبي حين ألغى الخلافة العثمانية وأعلن قيام الجمهورية التركية عام (١٩٢٣م)، وأقام القانون السويسري مقام الشريعة الإسلامية. وحركة الإمام حسن البنا (١٩٠٦-١٩٤٩م) الإسلامية السياسية الاجتماعية الإصلاحية التي انتشرت في مصر والبلاد العربية، وحركة الشيخ أبي الأعلى المودودي (توفي ١٩٧٩م) الإسلامية السياسية الاجتماعية الإصلاحية في شبه القارة الهندية، إلى جانب سلسلة طويلة من المفكرين والإصلاحيين، منهم: شاه ولي الله الدهلوي (توفي ١٧٦٣م)، والعلّامة محمد إقبال (توفي ١٩٣٨م)، وخير الدين التونسي (توفي ١٨٩٠م)، وعبد الرحمن الكواكبي (توفي ١٩٠٢م)، ورشيد رضا (توفي ١٩٣٥م) وسيد قطب (توفي ١٩٦٦م)، ومالك بن نبي (توفي ١٩٧٣م)، وغيرهم.

وعلى الرغم أنّ جُلّ هذه الجهود، التي تنوعت وغطت كل الاتجاهات الإسلامية والمدنية في الجوانب العقدية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية، كانت صحيحةَ المنطلقات، فإنّهم ومع ذلك فإنه من الواضح أنهم لم يضعوا

أيديهم على أسّ الداء ومنبع البلاء، ولم يتمكنوا من تحقيق مقاصدهم في أن يحركوا بشكل فعّال كوامن طاقة الأمة، وأن يصلحوا بناءها الفكري أو النفسي، وأن يسدوا ما بينها وبين الأمم المتقدمة من فجوة الأداء والقدرة والحضارة.(١)

أمام هذا الحالة التي كانت عليها الأمة لا يجد الباحث والمفكر بداً من أن يستمر في البحث والتنقيب حتى يهتدي إلى سبب العلة أو أسبابها المهمة الكبرى المؤثرة، ويأخذ بأسباب علاجها، حتى يصح جسد الأمة ويتميز أداؤها وتتصدى بنجاح لما تواجهه من تحديات، وحتى تستطيع في نهاية المطاف أن تقدم للإنسانية عطاءها، وتسترد عافيتها وحقوقها وكرامتها، وتسهم في بناء حضارتها.

الطفلُ؛ الجندي المجهول:

وما نراه في هذا البحث هو أنه لم يبق الكثير مما لم يتطرق إليه الفكر الإصلاحي والحركات الإصلاحية الإسلامية بشكل جاد حتى الآن، إلا أن أهم الأبعاد والأسباب التي يجب الالتفات إليها هو قضية الطفل بصفتها وسيلة أساسية لإحداث الإصلاح والتغيير المطلوب؛ وذلك لما للطفل من قدرة على تلبّس الأحوال التي توفّر شروط الإصلاح والتغيير التي تنادي بها حركاتُ الإصلاح، وتؤدي إلى إعادة تأهيل الفرد المسلم، والمجتمع المسلم،

---

(١) لإدراك أبعاد هذه القضية الفكرية انظر:

- أبو سليمان، عبد الحميد أحمد. **أزمة العقل المسلم**، هرندن والرياض: المعهد العالمي للفكر الإسلامي والدار العالمية للكتاب الإسلامي، ١٩٩٤م.

وتمكنه مجدداً من امتلاك القدرة على مواجهة التحديات.

ولو أن الفكر الإسلامي أمعن النظر في عمليات التغيير والنمو والتطور الملموس جسدياً ونفسياً لدى الطفل؛ لانصرف هذا الفكر إلى إدراك بُعْدِ التغيير في النفس الإنسانية، وفهمِ أحواله ومتطلباته، ولكان ذلك أفضل مدخل إلى إحداث الإصلاح المنهجي للمعرفة الإسلامية، وإعادة بناء الشخصية المسلمة بأبعادها الفردية والجماعية.

ثقافة العامة وثقافة الخاصة: مرضٌ ما يزال ينخر البناء:

ومن الملاحظ أنّ النـزر اليسير الذي أولته الأمـة للطفل وللتربية والتعليم في سالف عصورها كان ذا شقين متباينين:

الشق الأول: هو الشق الموجه لأبناء الخاصة، وجاء في شكل نصائح وتوجيهات مقدمة إلى مؤدبي أبناء الخاصة الذين يقومون بتعليمهم في دورهم، وفيها كثير من معاني الرفق والكرامة وحسن المدخل التي يربى عليها أبناء السادة والصفوة من عِلْيَةِ القوم، وذلك لإعداد هؤلاء الأبناء لمراكز الرياسة والحكم والسيادة في المجتمع. ومن ذلك وصايا معاوية بن أبي سفيان، وعبد الملك بن مروان، والحجاج الثقفي، وهارون الرشيد، وسواهم من سادة القوم وأهل الرياسة، وقد حفظتها لنا كتب التاريخ والتراث، ويعمل على تعليم هؤلاء الصغار أساتذةٌ يقومون بتربيتهم وتعليمهم علوم الدين والأدب والثقافة والرياسة.

الشق الثاني: وهو الشق الخاص بأبناء العامة، وكان تعليم هؤلاء يتم في "الكتاتيب"، حيث يتعلمون شيئاً من القرآن الكريم، وبعض مبادئ الحساب

التي تُعدُّ أداة ضرورية لإدارة حاجات الفرد اليومية. وكانت حالة "الكتاتيب" وقدرة معلميها، وسائل التعليم فيها -كما يحدثنا التاريخ- على قدرٍ كبيرٍ من السوء والمهانة، واعتماد الاستظهار واستخدام العقاب الجسدي. وكان تعليم هؤلاء الصغار فيها يتم بالنزر اليسير على نفقة الآباء الذين كان كثير منهم يعيش في حالة من العوز والكفاف والفقر المدقع، ولم يُعْنَ بأمر هذه "الكتاتيب" وحالة التعليم المتردية فيها، ويصفها ويأسى لأحوالها؛ إلا قليلٌ من أصحاب الفكر والعلم، من أمثال الإمام الغزالي والعلامة ابن خلدون، وقد وجهوا النقد إلى حالها ووسائلها وانحطاط مستوى معلميها، حتى إنّ بعضهم كان ينصح الآباء بألا يُعلِّم معلّمو الكتاتيب أبناءَهم أيَّ شيءٍ من أمور العقيدة، وما ذلك إلا لانحطاط معارف هؤلاء المعلمين وفساد عقائدهم.

وكانت النتيجة سوء حالة تعليم عامة أبناء الأمة وانحطاط ثقافتهم ووسائل تربيتهم. ومن الواضح أن وجود نوعين من الثقافة والتعلم قد ساعد على ذلك.

ويلحق بهذين النوعين من التعليم نوعٌ ثالثٌ لإعداد الموظفين، ويتمُّ في عدد محدود من المدارس والحلقات الدراسية التي تُمَوَّلُ عن طريق الأوقاف، ويؤمّها قلّةٌ من الشباب المنتقى لتكوين الصفوةَ العلمية الدينية، ويقوم بأعمال الكتابة والخدمة في الدواوين، وأعمال الفتوى والقضاء؛ حيث يتلقون في تلك المدارس الدروس الدينية والأدبية واللغوية، ولا سيّما دروس الفقه وأصوله وكان لها أعظم الرواج بسبب الحاجة إلى أعداد كبيرة من أصحاب الفتوى والقضاء.

هكذا كان حالُ تعليم أبناء الأمة في الماضي، وهو ما يزال كذلك إلى حد كبير في الوقت الحاضر، وفي جل البلاد الإسلامية إن لم يكن فيها جميعاً. حيث نجد أنّ أبناء الخاصة يتعلّمون على نفقة آبائهم في المدارس الخاصة والأجنبية، وهي مدارس يتوفر لها كثير من الإمكانات والوسائل والأساليب التعليمية والتقنية التي لا تتوفر لمدارس أبناء عامة الأمة، وهي في الوقت نفسه مدارس تسهم في تغريب عقلية طلابها؛ مما يضعفُ صلةَ كثيرٍ منهم بقومهم ودينهم وثقافتهم، ويضعفُ إدراكَهم لحقيقة مشاعر أمتهم وكوامن الطاقة والتحريك فيها، ويحوّلهم في جُلِّ الحالات إلى زعامات وقيادات فوقية مستبدة فاسدة مترفـة، تتمكَّن -بوسائل أجهزة القهر ومساندة الأجنبي وإغراءاته، وبما وقر في نفوس أبناء الأمة من التلوثات الثقافية والأمراض الوجدانية- من أن تُحْكِمَ قبضتَها على مقاليد بلادها، وتُخْمِدَ فيها كل قوى الحركة والقدرة والمبادرة والإبداع؛ لتنتهيَ حالُ شعوبها إلى ما نراه من العجز والفقر والجهل والتخلُّف بظلامـه وظلاماته، وبطش الأجنبي الطامعِ بمقدراتها، والساعي إلى تبديد ثرواتها وانتهاك حرماتها ومقدساتها.

ولقصور الثقافة الإسلامية أصبح الطفل هو الحلقة المفرغة التي يدور في رحاها عجز الأمة عن تغيير أحوالها وتجديد طاقتها. فإهمالُ شؤون تربية الطفل المسلم، وعجزُ الفكر المسلم في مجالها، وعدم إدراك أهمية التنمية التربوية والتعليمية للطفل في البلاد الإسلامية، والتقصيرُ المريع في توفير متطلبات هذه التنمية، هو أمر من أهم أسباب العجز عن إحداث الإصلاح والتغيير المطلوب في إعادة صياغة العقلية والوجدان لدى الطفل المسلم.

تنمية الوعي التربوي وإصلاح التعليم أساس الإصلاح:

إنّ من أهم ما نقع فيه من الخطأ أننا نجهد أنفسنا في خطاب البالغين ووعظهم، في الوقت الذي نهمل العناية بنموهم وهم صغار، ولا نسعى إلى إحداث التغييرات المطلوبة في بنائهم النفسي والوجداني بما يحقق تطلعات الأمة وهم في سن التربة والتعليم والتأثير، وهكذا يستمرّ الانحراف والعجز دواليك، عودٌ غضٌّ نديّ يهمل، فيشب معوجاً، وعودٌ يابسٌ معوجٌّ لا يفيد فيه ولا ينفع معه نداء أو دواء.

إنّ الإدراك العقلي لدى البالغين لا يكفي -بالضرورة- لتحريك وجدانهم، ولا يؤدي إلى انفعالهم وتفاعلهم، فكم من جبان لا يعرف عنه شيء من أوصاف الشجاعة إلا أنه يحفظ من عيون شعر الحماسة ما لا يعلمه كثير من الشجعان، وكم من طبيب يدخن بشراهة وهو يعلم أضرار التدخين ما لا يخطر ببال كثير ممن لم تمس لفافة التبغ "السيجارة" شفاههم، ولكم يثير الفزع في النفس ما ترى من متابعة كثير من أبناء المسلمين -مثقفين وعامة- لكثيرٍ من قنوات الأخبار، وكم يلتهمون من الصحف والتحليلات من كل المصادر، ولا ينقصهم إدراك عقلي لوجوه القصور في أمتهم وألوان الحاجة لديهم، ولكنّك لا ترى لذلك أثراً في أفعالهم وعطائهم وسلوكهم وتصرفاتهم، وكأن الإنسانَ المسلمَ جهازُ مذياعٍ أو تلفاز لا ينقطع عن اللغو والثرثرة، إلا أنه لا نصيب له في الفعل والبذل والعطاء.

إنّ من أهم الأسباب لهذه الظاهرة المرضية أن الأبعاد العامة في بناء الشخصية المسلمة قد أهملت في مراحل التكوين المبكرة، وبُدِّدَتْ فرصُ

بنائها، ولن يجدي الحديث عنها إلى البالغين شيئاً. فكل ما يحدثه التذكير والوعظ والإيضاح عند البالغ هو الإدراك العقلي، ولا علاقة لذلك بالانفعال الوجداني ما لم يكن ذلك قد تم غرسه بالفعل في أثناء الطفولة، مثله في ذلك مثل اللغة الأولى واللغة الثانية في تأثيرهما على النفس وانفعالاتها.

فالانفعال والإبداع لا يكون عادةً إلا باللغة الأولى، ولذلك كانت أهميةُ إثراء اللغة الأولى لكلّ شعبٍ بكلّ جديد؛ أمراً في غاية من الأهمية. أمّا اللغة الثانية التي تعتمد في نفس الإنسان على الترجمة فلا يمكنها تحريك المشاعر والانفعالات بسهولة، ففي اللغة الأولى لا ينفصم اللفظ عن موضوعه، ولا يمكن تصور الموضوع دون استدعاء اللفظ، وإحداث التلاحم بين اللفظِ رمزاً والموضوعِ محتوىً هو سر الانفعال والتفاعل في هذه اللغة.

الدرس الموسوي والتغيير الاجتماعي:

لعل من المهم هنا أن نذكّر بالعبرة التي تقدّمها لنا القصة القرآنية للتجربة الإسلامية الموسوية في إصلاح بني إسرائيل. فقد استُضعفوا واستُعبدوا ظلماً وعدواناً في مصر الفرعونية، فأراد الله أن يمنَّ عليهم، وأن يصلح ما أفسده الظلم والقهر والاستعباد في نفوسهم، فلما أخرجهم نبي الله موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى صحراء سيناء في الطريق إلى أرض الميعاد طلب إليهم أن يتوجهوا لأخذ الأرض وإقامة الدولة والمجتمع، وليستعيدوا حريتهم ويحملوا مسؤولياتهم.

ولأنّ القوم قد نُشِّئوا نشأة العبيد؛ لم يكن بإمكانهم أن ينهضوا بتبعات البناء وتضحياته ومبادراته، وكان لا بدّ لهم من أن يجيبوه جواب العبيد في الخوف وعدم المبادرة، وذلك حين قال لهم: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ

ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ [المائدة: ٢١-٢٢]. وعبّروا عن السلبية وعدم المبادرة -وهي الصفة الثانية لنفسية العبيد- بالتنصل من المسؤولية وإلقاء العبء على الآخر الذي هو هنا سيدنا "موسى" عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وهو يوازي في لغة شعوبنا اليوم: "الحكومة"، أو "الأمم المتحدة"، أو "المجتمع الدولي". وذلك أن العبد -نتيجة وضعه وتكوين نفسيته- يصبح سلبياً، ليست له مصلحة ولا حق في أخذ المبادرة، وكل ما يقدر عليه هو أن ينصاع للأوامر، فهو العبد المأمور".

وهكذا كان الشقُّ الثاني وهو جواب بني إسرائيل لموسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ جواب التخاذل والتخلي عن المسؤولية وإلقائها على عاتق "الآخر": ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ [المائدة: ٢٤].

ولأنّ موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ يعلم أنّ التقريع والنداء والوعظ لن يغيّر من طباع هؤلاء البالغين "العبيد" شيئاً يذكر، ولن يوفّر لهم الطاقة اللازمة والقوة والشجاعة التي يتطلبها البناء والمدافعة، فقد كان عليه أن يصرف جهده إلى الناشئة لكي يؤهلهم، ويغرسَ في أساس بنائهم الصفات المطلوبة لبناء الحضارة، وإقامة المجتمع، ومواجهة التحديات.

من المهم أن ندرك أنّ هناك فرقاً بين توجيه الوجدان والطاقة النفسية، وبين طبيعتيهما. فالوجدان والطاقة النفسية يمكن توجيههما وإعادة توجيههما بناء على القناعات التي يمكن أن تتغيّر حسب ما يتعرض له المرء من

إدراكات وتجارب، فيؤمن الكافر، ويقلع المعتدي، ويهتدي الضال. أما أصل طبيعة الوجدان والبناء النفسي فلا تقبل التغيير؛ حيث إن الشجاع لا يصبح جباناً، والبخيل لا يصبح جواداً، والحر الكريم لا يصبح دنيئاً لئيماً.

ومثل ذلك فإن جندي الجيش الجيد وعضو العصابة المجرم يتمتع كلٌّ منهما بصفتين أساسيتين مشتركتين من صفات البناء النفسي هما الشجاعة والولاء، لكنهما يختلفان في الوجهة، فجندي الجيش رجل خير يقوم بحماية الأمة والوطن، ورجل العصابة رجل شر يسخر نفسه للجريمة والأذى، وقد يهتدي رجل العصابة الضال ويرجع عن غيه وعدوانه، وقد يضل رجل الجيش والأمن ويسعى بالشر والفساد. وقد كان الشجاعان الفاروق عمر بن الخطاب وأبو جهل عمرو بن هشام بطلين وقائدين: أحدهما بطل الهداية والإسلام، والثاني بطل الكفر والجاهلية.

ولذلك كان قرار سيدنا موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بتوجيهٍ إلهيٍّ -لعلم الله بالطبائع، ولعلمه بحال بناء القوم النفسي- أن يتوجه إلى العمل الجذري لتحقيق الإصلاح وإحداث التغيير على مستوى القلب والوجدان، وعدم تعجُّل الثمر؛ وذلك بالعمل على إعادة تربية القوم، ولذلك توجه جهده إلى الناشئة لبنائها على الأسس السليمة ثقافة وعقلاً ووجداناً.

وهكذا ألزم سيدنا موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ -بتوجيهٍ إلهيٍّ- جيل "العبيد" من بني إسرائيل البقاءَ في صحراء سيناء أربعين عاماً على ما في ذلك من المشقة والعناء؛ حتى يكتمل بناء جيل مؤهل متخلص من تشوهات العقل والنفس الناجمة عن عهد الاستعباد. ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي

ﭐلۡأَرۡضِۚ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [المائدة: ٢٦]، فكانت النتيجة بناء جيل الأحرار ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾ [البقرة: ٢٤٩]. ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ ﴿٢٥١﴾﴾ [البقرة: ٢٥١]. وفي هذه التجربة الربانية درس وعظة وعبرة لكل من يدرك الطبائع ويكون على علم ودراية بعلوم النفس والتربية والمجتمع.

لهذا كان غياب الطفل عن أن يكون محوراً تربوياً علمياً مهماً في مشروع إصلاح الأمة، وكان الاقتصار على توجيه الخطاب الوعظي إلى البالغين، تعجلاً لقطف الثمر، إنما يعبّر عن أزمة الفكر في الأمة، وعن الغفلة عن دور المعرفة والبحث والدرس والقياس والتجريب في علوم الطبائع وتكاملها مع معارف الوحي.

ثانياً: موقع الفكر من مشكلات الأمة الكبرى

لا شك في أنّ المشكلات والأزمات التي تعاني منها الأمـة كثيرةٌ وعديدةٌ، وكذلك الأسباب التي تنشئها وتغذيها، ولكن هناك -في جلّ الأحوال- مشكلات كبرى تُعَدُّ الأمهات لكثير من المشكلات الأخرى التي تتفرع عنها وتتأثر بها، كما أن هناك أسباباً كثيرة تسبب هذه المشكلات وتغذيها، ولكن المهم في غمرة المشكلات المتراكمة والمتراكبة والأسباب المتشابكة التنبهُ إلى الأسباب الأساسية التي لا يمكن، للتعامل مع تلك المشكلات بفاعلية، إلا التصدي لها؛ لتكون منطلقاً للعلاج والتغلب على باقي الأسباب.

obeikan.com

ومن الواضح أنّ العالم الإسلامي واسعُ الأطراف، غنيٌّ بالموارد البشرية والمادية، له جذور تاريخية وحضارية، ممتلئ بالتطلعات، واعدٌ بالقيم والمبادئ، ومع ذلك فإنّه عالم متخلف، وفي حالة مريعة من التمزق، تتوزعه العداوات والصراعات، ممّا مكَّن لقوىً كثيرة لا تقاربه حجماً ولا وفرة موارد ولا سمو أهداف وغايات، من أن تتغلب عليه وتقهره، وتسلبه حقوقه، وتتحكم في مقدراته.

ولعل بعض الأدبيات الشعبية تصدق في التعبير عن واقع هذا الحال بما قد يغني عن ألف مقال. فمن ذلك ما يروىٰ من أنّ أحد الأعراب سُئل عن أحد الرجال إن كان يحبه، فكان جوابه أن "نعم.. فإنه ليس بجار ولا قريب!!" بحيث أصبح حال الأمة من التمزق والتناحر يجري علىٰ تناسب عكسي علىٰ ما يجب أن تكون عليه علاقاتها وصلاتها وروابطها التي تنمي وشائج التضامن، وتوثق دواعي المحبة فيما بينها.

وإذا كان الأصل هو أنّ "المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه"، و"من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته،"[1] وأنّ "المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً،"[2] و"مثل المؤمنين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكىٰ منه عضو تداعىٰ له سائر الجسد

(١) القشيري، مسلم بن الحجاج. **صحيح مسلم**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار إحياء التراث العربي، (د. ت.)، ج٤، ص١٩٩٦، حديث رقم: ٢٥٨٠.

(٢) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج١، ص١٨٢ حديث رقم: ٤٦٧. انظر أيضاً:
- القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، ج٤، ص١٩٩٩، حديث رقم: ٢٥٨٥.

بالسهر والحمى،"[1] فكيف نفسّر هذا الحال الرديء المعكوس المنكوس؟ وبأيّ دينٍ أو عقيدةٍ، أو بأيّ عقلٍ ومنطقٍ، أو بأيّ فائدةٍ ومصلحةٍ، يمكننا فهم هذا الحال وتبرير واقعه؟!

تعددت الرؤى لفهم هذه الظاهرة، كما تعددت المشاجب التي نسبت إليها، وفشلت -على ما نرى- جميع الحلول التي بنيت على هذه الرؤى والمشاجب، ولذلك لا بدّ لنا من رؤيـة أشمل وأعمق، حتى نفهم الظاهرة ونحيط بأسبابها العميقـة والجوهرية دون أن تختلط في أذهاننا بما يترتب عليها من أسباب ثانوية وأعراض مرضية.

الإسلام مصدر ما بقي في الأمة من خير:

إنّ من المؤسف والمعرقل لنهضة الأمة أنّ جُلّ صفوتها الحاكمة والمتنفذة المعاصرة تستلهم جوهر فكرها ونظرتها لأمتها وهويتها وتاريخها من نظرة الغرب الطامع الغاصب المستعمر وأدبياته لكل ذاكرته التاريخية الصليبية مع العالم الإسلامي والدولة العثمانية، وبكل ذاكرة معاناته التاريخية مع كنيسة العصور الوسطى وفكرها الكهنوتي الأسطوري، الذي وظّف المقدس لاحتكار السلطة والثروة وتمكين الاستبداد والفساد، ووأد براعم قوى العقل والعلم والتغيير والإبداع في المجتمع، مما جعل صفوات الأمة الإسلامية الحاكمة لا تدرك طبيعة منظومتها الحضارية، وما تنطوي عليه من طاقات حضارية إعمارية خيرية إيجابية، والتي شوَّهها السياسي القَبَلي والشعوبي

(١) القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، ج٤، ص١٩٩٩، حديث رقم: ٢٥٨٦.

الموروث، في سبيل توظيف المقدس لخدمة احتكار السلطة والثروة، وتمكين الاستبداد والفساد، ووأد قوىٰ العقل والعلم والإبداع ومفاهيم التوحيد والاستخلاف والمسؤولية والحرية والشورىٰ، وقيم التكامل التكافل، فيسارعون خطأ وجهلاً دون نظرة فاحصة عالمة ناقدة إلىٰ نسبة كل مشكلة أو نازلة تنزل بأرض المسلمين إلىٰ الإسلام، مهما كان ذيل الإسلام فيها طاهراً، وإسهاماته فيها إيجابية، وسجله التاريخي فيها مضيئاً.

والحقيقة الناصعة فيما يهمنا هنا، أي في مجال الوحدة والتكافل هي أن كل إسهامات إيجابية في تاريخ المسلمين تدعم وحدة المسلمين وتدعو إليها، فإنها ترجع إلىٰ الإسلام وقيمه، فهو الذي وحّد أصلاً قبائلهم وشعوبهم، وسوّىٰ وآخىٰ بينهم، وجعل من كل سلبيات العنصرية إيجابيات تدعو إلىٰ التساوي والتآخي والتضامن. فكل البشر من نفس واحدة، وتباينهم شعوباً وقبائل سبب ومدعاة للتعارف والتفاعل والتكامل، واختلاف ألسنة البشر وألوانهم هي من مظاهر عجائب خلق الله وآياته وبديع صنعه في تسوية الإنسان وكمال خلقه، وليس شيء منها أداة أو وسيلة للتعالي والاستكبار والتناحر والعداء، فإن أكرم الناس عند الله "أتقاهم" و"أحبهم" إليه "أنفعهم" لخلقه.

وسوف يظل صدىٰ القرآن الكريم والسنة النبوية، وسِجل تاريخ عهد الرسالة في بناء الأمـة، وسياساته في العدل والتضامن والتكافل وتأليف القلوب وإرساء أسس السلام الشامل والأمن الجماعي في المجتمع، يثير في نفوس المسلمين أسىً وألماً ولوعـةً وندماً وتطلُّعاً لا ينقطع إلىٰ الوحدة التي يدعو إليها الإسلام.

فإذا لم يكن الإسلام وقيمه ورؤيته الكونية هي السبب في التمزق والصراع في صفوف الأمة؛ فهل السبب يكمن في تعدّد الأعراق والأجناس واللغات والتقاليد وتباعد البلاد والأطراف؟ وهل الاستعمار وتآمر الأجنبي ودسائسه وأحابيله وعدوانه أسباب أخرىٰ للتمزق والتباغض والعداء والصراع بين دول العالم الإسلامي وشعوبه؟

الاستعمار مضاعفة ومرض:

ونحن -وإن كنّا نعلم أنّ الاستعمار، بسياساته وتدابيره وكيده وعدوانه، كان وما يزال من الأسباب التي أسهمت وتسهم فيما آل إليه العالم الإسلامي من حال بائس- فإنّنا في الوقت نفسه، نعتقد أنّ الاستعمار ونجاح سياساته الظالمة العدوانية إنّما هي أعراض مرضية مكّنت لـها تربةٌ مريضةٌ بأمراض أخطر وأعمق تكمن في صُلب كيان الأمـة، تحطم حصانتها، وتمكّن لسياسات الاستعمار منها، وأنه لا يمكن التخلص من سياسات الاستعمار، وقدرته علىٰ تمزيق صف الأمة، وإلقاء العداوة بين صفوفها، وإثارة الحروب والصراعات بين دولها وشعوبها، إلا إذا قُضِيَ علىٰ الأسباب الكامنة في كيان الأمة، والتي تضعف حصانتها، وتجعلها قابلة لنفاذ سياسات الاستعمار فيها ومؤامراته عليها.

ولكي ندرك سطحية تلك الأسباب وثانويتها لا بدّ لنا من فهم أشمل وأعمق للظواهر المرضية في حنايا كياننا وتلافيف نفوسنا. ولتوضيح هذه القضية فإنه من المفيد أن نأخذ نماذج إنسانية شبيهة بصفات أمتنا، وما حلّ بها من نكباتِ تسلطِ الاستبداد والاستعمار، لنرىٰ كيف واجهتها تلك الأمم، ولنرىٰ آثارها مقارنة بفعلها فينا، وما إذا كانت هذه الأسباب في ذاتها كافية

لتفسير ظواهرنا المرضية وآثارها في كياننا. وسوف نختار ثلاثة أمثلة بينها وبين أحوال الأمة الإسلامية أوجه شبه عديدة، وهي: الصين والهند وأوروبا.

مقارنات في قضية الوحدة الإسلامية: الصين، والهند وأوروبا:

الصين:

ونبدأ بالصين لأنّها تكاد تكون في كثير من الصفات توءَم العالم الإسلامي، كمّاً وكيفاً، وسعة وتنوعاً، وتاريخاً.

فالصين عالم يضم -كالعالم الإسلامي- أكثر من خمس البشرية، وهو عالم مترامي الأطراف: من بلاد الثلج والصقيع في منشوريا إلى عالم الصحارى والغابات الممتدة حتى حواف بلاد الاستواء. وهي تضم شعوباً وقبائل كثيرة العدد، مختلفة الأعراف والأعراق، بل إن لغاتها تتعدد ولا يجمعها لسانٌ منطوقٌ واحد، فالتواصل اللغوي بين شعوبها يتم عن طريق التعرف المشترك لصور آلاف الكلمات الصعبة المعقدة، ذلك لأن اللغة الصينية لغةُ صور، وهي في ذلك كاللغة الهيروغليفية الفرعونية القديمة البائدة. وهكذا فقد يلتقي اثنان من أبناء عالم الصين، ومع ذلك يصعب بينهم التفاهم الشفوي لاختلاف لغاتهم المنطوقة. وبسبب اللغة المصورة المكتوبة يستطيع كل المتعلمين من أبناء الصين فهمها لغةً ووسيلةَ تواصل مشتركة فيما بينهم.

والصين ذات تاريخ طويل حافل، مرّ بشعوبها الأباطرة وأمراء الإقطاع، ودار بينهم الكثير من الحروب والصراعات، ونال شعوبهم الكثير من المآسي والمظالم، كما أنشب الاستعمار أظافره في بلادهم، وأخضعها لحكمه ومظالمه

ومطامعـه، على نحو ما ألـمَّ بالعالم الإسلامي من حكم السلاطين والأمراء والإقطاع والاستعمار.

وبقيت الصين، بفضل ثقافة شعوبها ووجدانهم وحسهم الجمعي، مجتمعاً وكياناً ودولةً واحدةً، وما يدور اليوم من صراع بين دولة الصين وجزيرة تايوان ليس هدفه في الحقيقة الانفصال وتمزيق وحدة الصين، ولكنّه صراع بين الفئات والمصالح تحت غطاء المشروعية، وما يُبقي على استمرارية هذا الصراع وخروج جزيرة تايوان عن وحدة الدولة والتراب الوطني الصيني الأم ويؤججه؛ هو مصالحُ الأجنبي وسطوةُ صواريخه وأسطوله.

الهـنـد:

والمثل الثاني هو دولة الهند، فالهند أيضاً تجمّعٌ إنساني هائل قارب في تعداده خمس البشرية، وتعدى المليار نسمة، يغطي شبه القارة الهندية من جبال ثلوج الهملايا حتى مشارف خط الاستواء، ويضمُّ العديد من الشعوب التي تتباين بكثرة أعراقها وألوانها ولغاتها وعقائدها، وقد مرّ بالهند -مثلما مرّ بالصين والعالم الإسلامي- استبدادُ الأباطرة وأمراء الإقطاع، وعسفُ الاستعمار، بل ربّما كان بعض ما مرّ بهذه البلدان أدهى وأمرّ.

وأرض دولة باكستان المسلمة، كانت جزءاً من عالم الهند، وما تعانيه الهند من المشكلات العرقية واللغوية والدينية والاجتماعية والاقتصادية أضعاف ما تعاني منه باكستان، وإذا كانت الهند قد بقيت دولة واحدة، بعد انفصال باكستان عنها، فإنّ العيد القومي لدولة بنغلاديش المسلمة هو يوم انفصالها عن دولة باكستان التي قامت أصلاً باسم الإسلام. وما يدور من صراعات بين

أقاليم دولة باكستان نفسها يثير القلق على مستقبل وحدة هذا البلد المسلم.

ولعل ممّا تجدر الإشارة إليه هنا أنّ بعض المحللين السياسيين يعزون الحروب الهنديـة الباكستانية في الحقيقة إلى رفض الهندوس وثقافتهم ووجدانهم وحسهم الجمعي، قبولَ مبدأ انفصال أيّ جزء من أرض شبه القارة الهنديـة عن دولة عالم الهند الكبرى.

أوروبـــا:

والمثال الثالث هو قارة أوروبا واتحاداتها الاقتصادية والعسكرية والسياسية الناجحة. وكلّنا يعلم تاريخ أوروبا وما نشب بين دولها وشعوبها من صراعات استعمارية وقومية كبرى على مدى القرون، وكيف أشعلت صراعاتها أوار نيران حروب عالمية قُضي فيها على الملايين من البشر.

هذه القارة، بتاريخ صراعاتها، وتعدد ثقافاتها وأعرافها وأعراقها ولغات شعوبها، وما ووجهت به من التحولات والتغيرات الكونية، تبدّلت مصالحها من حالة الصراع والمواجهة إلى الوحدة والتكتل والتضامن والتعاون للبناء والتنميـة، وللتمكّن من مشاركة التكتلات الاقتصادية والسياسية العالمية الكبرى في اقتسام الغنائم والأسواق والموارد. وقد تمكّنت بالفعل، في سبيل تحقيق مصالحها، من بناء أوروبا المتحدة بأجهزتها ومؤسساتها وتكتلاتها وعملتها الموحدة (اليورو)، التي تهدف إلى اقتسام الغنائم مع الدولار، لكونها عملةً عالمية ومستودعاً للمدخرات العالمية، ولتستولي من خلاله على الثروات الهاربـة والمسلوبة من بلاد الشعوب الصغيرة الفقيرة، وفي مقدّمتها بلاد العالم الإسلامي، بضمان عملات اقتصادياتها الكبرى التي لا تكلفها إلا ثمن الورق

الذي تطبع عليه.

فلماذا أمكن لأعداء الأمس من شعوب أوروبا أن يتحدوا من أجل هذه المصالح، وأن يلأموا ما بينهم من جراح؟ وكيف أمكن أن تؤلف مصالحهم ما بينهم من عداوات وتمحو ما بينهم من ثارات؟! لا يمكن أن نجد تفسيراً لهذه الظاهرة إلا من خلال دور الحس والوجدان والثقافة الجمعية لدى هذه الشعوب، فهي التي مكّنتها من التكتل على الرغم مما كان بينها؛ خدمةً لمصالحها العامة.

وباتحاد أوروبا يكون قد اكتمل الهلال الرهيب المكوَّن من اتحادات عالمية كبرى تحيط بالعالم الإسلامي والإفريقي الضعيف الممزق، وهو اتحادات الصين والهند وروسيا وأوروبا وأمريكا، ويمثل العالـمُ الإسلاميُّ والإفريقي أمامها، بل عالم أمريكا الجنوبية أيضاً، منطقةَ نفوذٍ وصراعٍ وفريسةً تتكالب عليها الضباع.

إنّ هذا الوضع المؤسف الدامي للعالم الإسلامي والإفريقي -في الوقت الذي يمثل مأساة إنسانية لأبنائه- فإنه يمثّل بؤرة تنافس وصراعات بين القوى العالمية، ومن المهم للإنسانية ملء فراغه وقيام اتحادات عالمية إسلامية وإفريقية تأخذ فيه موضع الشريك للقوى العالمية، وبذلك يتجنب العالم مخاطر حروب مدمرة لم يعد من الممكن التكهن بآثارها وآثار أسلحتها على مستقبل الإنسان والحضارة الإنسانية.

ومن الواضح من الأمثلة التي أوردناها سالفاً أنّ الأسباب التي نعزو إليها أسباب فرقة عالمنا الإسلامي وتمزقنا وصراعنا فيما بيننا، وتمكين الأعداء منا، لا

تكفي ولا تفسّر وحدها ما نحن فيه. فعلى الرغم من توفر تلك الأسباب عند سوانا فإنّهم لم ينتهوا إلى ما انتهينا إليه من صراعات وتمزق وضعف.

ولعل من المفارقات العجيبة أن كثيراً من الاتفاقات الاقتصادية والسياسية التي وحّدت أوروبا قد تم عقد مثيلات لها بين البلاد العربية في اتفاقات أسواق مشتركة، وتخفيض الرسوم الجمركية، وتشجيع التجارة والتبادل التجاري بين الدول العربية، واتفاقات دفاع مشترك، فلم يتحقق على أرض الواقع شيء من هذه الاتفاقات، وظلت الحواجز بين بلاد العرب وشعوبهم قائمة، تعلو وترتفع جدرانها، والصراعات تزيد وتتفاقم، وكأن أي أمر يتم الاتفاق عليه هو المر الذي يغلب الظن أنه لن يرى النور، أو لن يتحقق في واقع علاقات الأطراف العربية!!!

الدين والعقل والمصلحة كلها تأمرنا بالوحدة والتكافل:

إذا كان الدين لا يأمرنا بالتمزق والصراع بل يحضنا على الوحدة والتآخي، وإذا كان العقل والمصلحة لا يأمراننا بذلك، بل يحضاننا على الوحدة والتكتل والتناصر؛ فلماذا نفعل فيما بيننا عكس ما يمليه علينا الدين والعقل والمصلحة.

والتمزق والصراع من الأمراض الاجتماعية التي تتعلق بالجانب الجمعي في الشخصية الإنسانية، وهو الجانب الذي يجب أن يكون موضع البحث والتقصي ومعرفة الأسباب التي أدت إلى تشوهات الجانب الجمعي في شخصية الإنسان المسلم.

فكلنا يعلم أنّ الوحدة والتكتل والتعاون والتضامن هي من أهم مكونات الجانب الجمعي والعامّ من جوانب الشخصية الإنسانية. وسلامة تكوين الجوانب المختلفة للشخصية الإنسانية -الفردي منها والجمعي على حد سواء- أمر ضروري لاستقامة الشخصية الإنسانية وتوازنها، ومن ثمّ استقامة المجتمع وتوازنه. فالكائن الإنساني في أصل طبعه الإنساني فرد يتعلق تصرفه بإرادته وحمل مسؤولية وجوده، والقيام بواجبات هذا الوجود، روحياً ومادياً، وهذا الأمر لا يتأتى مادياً ولا معنوياً إلا من خلال الجانب الجمعي في تكوين الإنسان، وبالتالي تكوين المجتمع الذي هو أمر ضروري لوجود الإنسان واستمراره المادي، بدءاً بالأسرة، أُمّاً وأباً، وانتهاءً بالمجتمع الذي هو وسيلة الفرد ومجاله للعيش والبقاء.

ومن خلال المجتمع وعلاقاته والأداء الإنساني فيه، وبواسطته، يتحقق لأعضاء المجتمع الوجود المادي والتسامي الروحي والسمو القيمي. فالكائن الإنساني لا يوجد ولا يمكن له أن ينشأ أو يبقى فرداً، بطبيعة قدراته وحاجاته، وبسبب طفولته الإنسانية الطويلة؛ إذ لا بدّ له من مجتمع ينشأ في حمايته ورعايته، وهو من خلال علاقاته الاجتماعية يعبّر عن إرادته، ويحقق في مجاله مكنون نفسه من المشاعر والقيم والغايات، ويمحص بهذا التفاعل معدن نفسه، ويحقق بنوعية تفاعله ومدافعته في المجتمع معنى وجوده.

الخلل الجمعي في ثقافة الأمة: فاقد الشيء لا يعطيه:

إن أي خللٍ في رعاية الجانب الجمعي في تكوين شخصية الفرد لا بدّ من أن يكون له آثاره السلبية البعيدة على أداء الفرد ونوعية حياته ووجوده، روحياً

ومادياً، وبذلك تتحدد طبيعةُ الجانب الجمعي في شخصية الفرد جودةً أو رداءةً طبعة المجتمع، ونوعية علاقاته ومؤسساته، وتؤثر في مدىٰ توازنه واستقراره وقدرته علىٰ أداء مهامه في رعاية الحياة الإنسانية لأبناء الأمة وترقيتها.

فإذا لاحظنا خللاً في الأداء الجمعي لأفراد المجتمع، وتقصيرهم في رعاية علاقاته ومؤسساته والمشاركة الإيجابية البناءة في احتياجاته ومتطلباته، وجب علينا النظر والتدقيق في فكر ذلك المجتمع وثقافته ومناهج تربيته. فالطفل الإنساني يكتسب فهم نفسه وعلاقاته وأدواره الفردية والجمعية من مصدرين؛ المصدر الأول فطري ينبع من إحساسه بحاجاته ومدركات فطرة عقله. والثاني ينبع من كلّيات مفاهيم ثقافة مجتمعه. وعلىٰ مدىٰ سلامة هذه الكليات والثقافة وتوازنها وتجاوبها مع حركة واقع المجتمع، وحاجاته، وإمكاناته، ومتغيّراته، وتحدياته، يتوقف توازن الفرد الذاتي والجمعي، وسلامة أدائه، ومدىٰ قدرته علىٰ النجاح في مواجهة ما يتعرّض له من تحديات، ومن ثمّ مدىٰ قدرته علىٰ إثراء وإغناء ذاته ومجتمعه مادياً وروحياً.

والجانبُ النفسي الوجداني الروحي في مرحلة الطفولة، بطبيعة دورها الأساسي في بناء الشخصية الإنسانية، أمرٌ أشملُ وأهمُّ من الجانب المعرفي فيها. بل إنّ الجانب المعرفي في هذه المرحلة (مرحلة الطفولة) هو وسيلة من وسائل بناء الجانب النفسي والوجداني، ولذلك يجب إعطاء هذا الجانب من المنظومة الثقافية التربوية لأية أمة الجانب العظم من الأهمية، والتأكد من أنّ الجوانب الثقافية المعرفية التي تقدم للطفل إنما هي بالدرجة الأولىٰ وسيلة للبناء النفس والوجداني والروحي، وصياغة نوعية العقلية عند الناشئ، إلىٰ جانب دورها

المعرفي الذي يتكامل مع الجانب الوجداني في بناء قدرات الطفل.

الجانب الجمعي في الفكر الإسلامي:

وإذا دققنا النظر في تاريخ فكر الأمـة، ولا سيّما الجانبُ الجمعي الخاص بتكوين الشخصية المسلمة، سـنرىٰ توافقاً مدهشـاً -طرداً وعكسـاً- بين إيجابية المجتمع وسلبيته؛ بشأن توازن كيانه، وسلامة أدائه الإنساني الحضاري.

فالروحُ الجمعي علىٰ عهد الرسالة كان علىٰ أفضل حالاته وأعلىٰ مستوياته، وإحساسُ أفراد المجتمع بانتمائهم ومسؤوليتهم وتضامنهم -بصفتهم أعضاء في جسد الأمة والجماعة- كان في ذروة حالاته: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٌۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٩﴾ [الحشر: ٩].

وهذا الروح الجمعي القوي الفعّال لم يأت من فراغ، بل جاء من أصل النشأة العربية القبلية الحرّة البسيطة، التي لم تكبّلها ولم تحطمها أنظمة الظلم والاستبداد، وزادَ فيها وعمّقها وفعَّلها روحُ الإيمان التوحيدي الاسـتخلافي الإسلامي، ونظامُه الذي بني علىٰ العدل والتضامن.

فهذا رسول الله ﷺ رأس حكومة المجتمع الإسلامي يرسي قواعد نظام عادل يرعىٰ أبناء المجتمع، ويصون كرامتهم الإنسانية، ويحفظ حقوقهم، مسلمين كانوا أو غير مسلمين، حتىٰ بلغ به الأمر أن سنّ ضمان الدولة للديون، رعايةً وتشجيعاً للتعاون بين أفراد المجتمع. فلو توفي المدين وكان ما

ترك لا يفي بديون الدائنين فإنّ الدولة تقوم بذلك: "من مات وترك مالا فلورثته، ومن مات وترك دينا فعليّ سداده". ولذلك ضحى المسلمون في سبيل الأمة وبذلوا وآثروا، فلا غرابة، حين طلب رسول الله ﷺ منهم البذل في ساعة العسرة تبرعوا بأموال كثيرة، وبالطبع كان على رأس المتبرّعين أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، الرجلُ الحصيفُ ذو الرأي الصائب والفهم النافذ.(١)

وكما تصدق المسلمون فقد تصدق أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لكنّه لم يتصدق في لحظة الحاجة والعسرة بفضلة ماله ولا بكثير من ماله، بل تصدق بكل ماله، ولم يترك مدخراً لأبنائه!! فلماذا يفعل ذلك رجل في حكمة أبي بكر ورجاحة عقله؟ وسأله رسول الله ﷺ، فيما رواه أحمد:"ماذا تركت لأبنائك"؟ فأجابه أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بكلمتين فقط لخص بهما -في صفاءِ ذهنٍ ونفاذِ بصيرةٍ- طبيعةَ النظام

(١) من المفيد أن نستعرض مع القارئ شيئاً من شخصية أبي بكر وحكمته لنعلم دلالة فعله في فهم روح مجتمع عهد الرسالة. فأبو بكر لحكمته وحصافة رأيه ونفاذ بصيرته ورباطة جأشه كان هو الذي صحبه رسول الله ﷺ، في رحلة المخاطر والمخاوف، والحاجة للعقل والتدبير والحيلة، ولم يصحب رجال القتال والمعارك، وهو الرجل الذي كان بذهنه الصافي بدهي الإيمان برحلة الإسراء والمعراج النبوية، وهو أيضاً الرجل الذي وقف -فيما رواه أبو داوود وأحمد- بقلب شجاع، وإيمان بيّن، وذهن صاف في لحظة الحزن والفجيعة المذهلة بوفاة الرسول ﷺ، والرسول ﷺ أحب وأقرب إليه من أيّ أحد سواه، ليعيد الأمة إلى رشدها: "من كان يعبد الله فإنّ الله حي لا يموت، ومن كان يعبد محمداً فإنّ محمداً قد مات"!، ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [آل عمران: ١٤٤]. حتى قال عمر والمسلمون الذاهلون المفجوعون معه، فيما رواه ابن ماجة: "فلكأني لم أقرأها إلا يومئذ". وهو الرجل الذي قاد بنجاح ونفاذ بصيرة سفينة دولة الإسلام الفتية بعد وفاة رسول الله ﷺ بمهارة وسداد رأي ونفاذ بصيرة وسط ثورة الأعراب السياسية ضد الدولة، حين قرر بعزم ضرورة إخضاع هؤلاء الأعراب، وردهم إلى قواعد الاجتماع الإنساني الحضاري، وقمع شوكة ردتهم الحضارية.

الاجتماعي وبُعدَه الجمعي وأسلوبَ أدائـه: "لقد تركت لهم الله ورسوله".

ظن من لم يدرك أهمية البُعد الجمعي أنّ إجابة أبىٰ بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ تعبّر عن مجرّد إيمانه العميق بالله، ولا شك في أنّها كذلك، مثلُه في هذا مثلُ أفاضل الصحابة، ولكنّها تعبّر أيضاً عن إدراكه لطبيعة النظام الاجتماعي الذي ينتمي إليه، إنّه مجتمع تلاحم وتكافل لا يضيع فيه فقير ولا ضعيف، ولا حاجة فيه إلىٰ البخل والشح والكنز، فالفرد للكلِّ، والكلُّ للفرد، وهم في ذلك متضامنون إخاءً وبذلاً وتكافلاً.

وهنا تتضح لنا بعض المفارقات المهمة بين مجتمع عهد الرسالة ومفاهيمه وأدائه، ومفاهيم عهود الطغيان والعزلة التي ضعف فيها البُعد الجمعي في نظام المجتمع، وانعكس ذلك علىٰ غفلة الصفوة الفكرية عن فهم هذا البُعْدِ ودلالات ما يتعلق به من النصوص والمعاني، لأنه "ليس من رأىٰ كمن سمعَ"، وليس أوضح دليلاً من التجربة. وما كان لمجتمع الطغيان والتبديد والاستبداد، الذي لم يشهد ولم يعاصر مجتمع العدل والكرامة والتكافل، أن يدرك –وقد غابت تجربته وفلّت أداة معرفته– ما في النصوص من معانٍ ومن دلالات "فكل إناء بما فيه ينضح".

ولذلك فَهِمَ مفكّرو العزلة ومنظّروها إجابة أبي بكر علىٰ أنها تعبير عن إيمانه وتوكله علىٰ الله، ولم يدركوا أنّ القرار الذي اتخذه لم يكن قراراً عشوائياً، ولا مجرّدَ انفجارٍ عاطفي يغشاه بعدها ندمٌ وأسفٌ، ولكنّه قرارٌ واعٍ سليمٌ مدروسٌ، وذلك لإيمانه المطلق بالله وثقته به أولاً وآخراً، ولكن أيضاً لإيمانه وثقته بحكومـة المسلمين ونظام كفالتها ورعايتها لأصحاب الحاجة: "تركت

لهم الله ورسوله".

ودون فهم ذلك النظام وفهم طبيعتـه فليس بالإمكان فهم هذا الحوار القصير الوافي الدلالة بين الرسول ﷺ وأبي بكر الصديق، إلا لأصحاب العلم الاجتماعي، وأهل الخبرة، وإلا لمن كان يعيش النظامَ ويدرك طبيعةَ أدائـه.

أما حين تدهور البعد الجمعي وأصبح احتجازاً للأموال، واستئثاراً بالخيرات، واصطناعاً للأعوان، وهضماً للحقوق، وظلماً للمحرومين والفقراء وأصحاب الحاجة، بحيث لم يعد لأفراد الناس إيمان ولا ثقة بالمجتمع ونظامه، وكل فرد هو ضمان نفسه وأبنائه، فقد أصبح أحدهم لا يهتم إلا بنفسه، فلا يُعوِّل على المجتمع ولا يُعوِّل عليه المجتمع، فلا غرابة إن رأينا جُلَّ أبناء شعوبنا اليوم يتهربون -عن عمد وقصد- من أداء كل حق عام، ويبخلون -عن سعة- عن كل حاجة عامة، وتتهدم أمامهم المؤسسات، وتُضيَّع الحاجات والمهمات، وهم يقفون موقف المتفرج الذي لا يعنيه من الأمر شيء. وكم تؤلم المقارنة بينهم وبين أبناء الشعوب التي تعنى بتربية الحس الجمعي ويقوى فيهم حس البذل والعطاء.

الآثار الخطيرة لضعف البُعد الجمعي في الثقافة والتربية:

مع ضعف البُعد الجمعي في شخصية المسلم؛ لا غرابةَ أن تنهار مؤسسات الأمة العامة، وأن يتمزق نسيجها، وينهار بناؤها، وأن يصَعُبَ أداء الحقوق العامـة، ودفع الضرائبِ، وأن تشُحَّ الأيدي بالتبرعات والنفوس بالتضحية. ففي الوقت الذي يسعى فيه الفرد لكي يوفر لنفسه ولأبنائه كل ما يستطيع من الحاجات والكماليات، فإنّه لا يلقي بالاً إلى حاجـة الأمـة ولا إلى حاجة

الفقراء والمعوزين، ولا إلى حاجة أبنائهم، لأنّه يعلم أنّه وحده ضمانُ نفسه وأهله لو ألـمّت به أو بهم الحاجة، وأنّه لن يلبي حاجته أحدٌ، ويصبح لسان حاله "من لا يُرْحَم لا يَرْحَم".

ليس عجيباً مع ما آلت إليه تربية البُعد الجمعي في بناء شخصية أبناء كثير من الشعوب الإسلامية في عصور الانحطاط أن تفشو ظاهرة التسول، فلو أنّ المجتمع ونظامه كفل لأصحاب الحاجة والمحرومين حَدَّ كفافِ الكرامة الإنسانية لاختفى ذلُّ السؤال وتشرُّد الأطفال الذين يشكلون مرتعاً خصباً للجريمة والرذيلة.إنّ تفشي هذه الظواهر، وتفشي الصمت عنها، هو من أبرز الأدلة الظاهرة للعين، والمؤذية للضمير، والشاهدة على ضعف البعد الجمعي في الأمة، وعدم سلامة أداء النظام الاجتماعي وحمل تبعاته.

وليس غريباً، مع ضعف البُعد الجمعي في بناء الشخصية المسلمة، تفشّي الفساد الاجتماعي، وما يتبعه من تفشّي الفقر والجهل، وتردّي الخدمات، والهرب من أداء الحقوق والواجبات العامـة، والنظر إلى المال العام على أنّه مال مباح لمن يقدر على الفوز به دون سواه. ويلحق بتلك الأمراض الاجتماعية مرضُ التخلُّف عن حمايـة مصالح الأمـة، والذود عن كيانها، وإخلاص الأداء لها، بل يمتد المرض إلى خيانةِ أمانتها، وافتراسِ حرماتها، وتمزيقِ أوصالها، والصراعِ على سلب خيراتها.

وبإسقاط عهد الخلافـة الراشدة، وغلبة روح الجاهلية القبلية على الساحة السياسية، بروحها العرقية، ونزعة مغالباتها الحيوانية، بعيداً عن مبادئ الحق والعدل والإصلاح، لكي تمثل حميّة وعرقية واستئثاراً وتعالياً واستباحةً

للحقوق، تراجعت -وبسرعات متفاوتة- قوة الدفع الروحي الإسلامي، وتفشّت الصراعات، وسالت الدماء، فهزلت الروح الإسلامية، وهزل معها البعد الجمعي، وتشتّتت ريح الأمـة إلى أعراق وقبائل وشعوبيات وممالك وإمارات، وهزم معها وانزوى الأمناءُ على عهد الرسالة؛ منعزلين بعيداً عن سياسة الأمـة وما ألمّ بها من فساد وعنف ودموية، عاكفين على الدرس والذكر في المساجد والمدارس والزوايا.

لم تقف خسارة الأمـة عند خسارة الجولة بين بقايا أمناء عهد الرسالة وتلامذة مدرسة المدينة من العلماء أمام القبلية والعصبية؛ بل تعدتها -للأسف البالغ- إلى فَـلِّ عدّة المقاومة، وهدم القدرة على إعادة بناء مشروع الإصلاح على هدي سياسات عهد الرسالة.

وللأسف فإنّ فشل محاولات رجال مدرسة المدينة وورثة عهد الرسالة على مدى قرن بعد الحكم الراشدي انتهى بهم إلى العزل والاعتزال، الذي كان -عدا استثناءات محدودة- أقربَ إلى الاستسلامِ للعجز والخور. وأدى هذا الاستسلام إلى تأصيل السلبية الاجتماعية في فكر الأمة وضميرهـا، وإهمال البُعد الجمعي في تكوين أبنائها، وتدمير أسسه وقواعده؛ لتصبح مؤسسات الحكم والسياسة في ضمير الأمة موضعَ الشك والريبة، فلا تتمتع لدى جمهور الأمة بأيّ مشروعية.

وبدل أن يتبين رجال مدرسة المدينة -وهم الأولى بالحكمة والسداد- خطأ أسلوب العنف في المواجهة من أجل الإصلاح والتغيير، وأن عليهم البحث عن أساليب أسلم عاقبة وأكثر جدوى، وذلك من خلال معرفة طبيعة

الخلل والأساليب الفعالة لإعادة بناء الشخصية الإسلامية، وتعديل مسار توجهاتها، وتقوية عوامل الجانب الجمعي الخيِّـر فيها؛ فقد استمرت العزلة والمواجهة بأشكال مختلفة دون أن يدرك العلماء والمفكرون دور الطفولة في إعادة صياغة شخصية الأمة وعقليتها وبنائها النفسي بشكل طبيعي وسلمي، وبقي شأن تربية الطفل مقصوراً على جوانب تعليمية تلقينية معرفية دينية ذات صبغة شخصية محدودة.

وهكذا انصرف الجهد لاستمرار الصراع والرفض، ولكن بشكل سلبي، واستمر كل فريق في حفر خنادق مواقعـه، وتوفير الوسائل، وتجنيد الأعوان، للحفاظ ما أمكن على هذه المواقع التي استمرّت واستمرت معها قدرات الأمة في التدهور والهبوط.

فالحكم والسياسة والشؤون العامة والأموال هي إقطاعية الصفوة السياسية القبلية العرقية الشعوبية العسكرية، أمّا خاصة شؤون الفرد وتعاملاته الفردية فهي منطقة نفوذ الصفوة الفكرية الدينية. وأصبح الأعوانُ والجندُ والأموالُ وسائلَ الصفوة السياسية الحاكمـة، والمساجدُ والزوايا وحلقاتُ الوعظ والإفتاء وسائلَ الصفوة الفكرية الدينية، وأصبح العامـةُ في صراع الصفوات فريسةَ الظلم والقهر والجهل والفقر، وغدا المجتمع المسلم مرتعاً خصباً للشعوذة والخرافة، وخدر الاستسلام لغيبة الوعي وللدروشات ذات الصبغة الصوفية الحلولية.

ضرورة بناء البُعد الجمعي في الثقافة والتربية:

وكانت الكارثة أن تأصّل على يد الصفوة الفكرية، ودون وعي، هذا الوضعُ المريضُ؛ فأُعيد بناء الرؤية الإسلامية الكلية لتعكسَ هذا الواقع الذي ينـزوي فيه البُعد الجمعي في فكر الأمة ثقافةً وتربيةً وتعليماً، ويُهمَل أمره، وتصبح العزلة والانطواء سمة الحياة الاجتماعية، وتصبح غايتها "العبادة" في مفهومها الفقهي، ويصبح الإنسان المسلم سلبياً نحو الحياة بعد أن فرّغها من بُعدها الروحي؛ فغدتْ مجردَ "معاملات" وضوابط قانونية للعقود، لا سعياً وإتقاناً وعمراناً وقياماً ووفاءً بمسؤوليات الاستخلاف في الأرض.

لقد أصبح كتاب الفقه الإسلامي هو حلقة الوصل بين ثقافة الخاصة الفكرية وثقافة عامة الناس؛ أي إنه أصبح في الحقيقة دليل تكوين عقلية المسلم وأساس بنائه النفسي. هذه المكانة المركزية في العصور المتأخرة لكتاب الفقه في ثقافة المسلم تجعلنا ندرك مدى الضرر الجسيم والعاهة الدائمة التي أصابت تكوين العقلية المسلمة والنفسية المسلمة حين أهمل كتابُ الفقه البُعْدَ الجمعي العام من خطـة توجيهه وعرضه، وحين جعل شؤون الذكر والمناسك والشعائر هي "العبادة" وهي "البعد الروحي" في حياة البشر، فتم اختزال الحياة والاستخلاف في مجرد "معاملات".

وإلى أن يتم إصلاح كتب الفقه والثقافة والتربية الإسلامية؛ حتى تصبحَ دليل فهمٍ وفقهٍ وثقافةٍ وتربيةً شموليةٍ صحيحةٍ تمثل قاعدة وعي حضاري شاملٍ متكاملٍ إيجابي، وتنتج فكراً وثقافةً وفقهاً حضارياً يُعنى بتكوين العقل والنفس والشخصية المسلمة الفردية والجماعية، وتطويرها وتنميتها تربوياً منذ

باكورة نشأتها ومراحل طفولتها، فإنه لا مجال ولا أمل في شخصية إسلامية تتمتع بالقوة والتضامن والمبادرة والإبداع، وتكون قادرة على أن تضع الأمةَ الهاديةَ في مقدمة مصاف أمم التقدم والريادة والقيادة.[1]

ثالثاً: التغيير الاجتماعي والخطاب التربوي

إذا كنا قد سلَّمنا بأنّ الأمة في الوقت الحاضر قد باتت متخلّفة منهكة ممزقة مستضعفة، وإذا كنا قد سلَّمنا بأنّ الأمة غنيةٌ بمواردها المادية، وبمبادئها وقيمها السامية الأخلاقية الروحية، وإذا انتهينا إلى أنّ تخلّف الأمة وتراجعها يرجع في جوهره إلى ما أصاب فكرها من ضمورٍ وعجزٍ ناجمٍ عن عصور الفصام والصراع بين النخبة السياسية والنخبة الفكرية، وما أصاب تصور الأمة الكوني من جراء ذلك من تشوه، وما أدى إليه ذلك في

(١) لو رجعنا إلى ما كتبه العلماء في قضايا الحكم والسياسة لوجدنا جُلَّه نظرياً، أو يتعلق بالترتيبات الإدارية، ويتسم بروح الوعظ والنصح للحاكم، ويوجه إليه، وكثيراً ما يكتب إهداءً له، ولم تكن هناك كتابات تُوَجَّه إلى الأمة لكونها الأصل في الأمر، وهي المرجع فيه، وفي كل ما يتعلق بشؤون الشورى فيها، وفي ما يخص حقوقها وحقوق أبنائها وواجباتهم ومصالحهم السياسية. ومن ذلك ما قرره الإمام الماوردي، قاضي القضاة على عهد بني العباس، في كتابه "الأحكام السلطانية" -خضوعاً لواقع ممارسات أمراء الجند الأتراك الذين تسلَّطوا واغتصبوا الحكم، وحفاظاً على ما تبقى من رسم الخلافة وقانون الشريعة - من أنّ البيعة تنعقد باثنين قياساً على عقد النكاح!!

ولاستكمال الفائدة، ارجع إلى كتاب "**العنف وإدارة الصراع السياسي في الفكر الإسلامي بين المبدأ والخيار: رؤية إسلامية**" للمؤلف، الذي يوضح أهمية التزام الشورى في إدارة سياسة المجتمع، والتزام الوسائل المدنية والسلمية في تصحيح المسار السياسي في المجتمع، لأنّ ذلك يحمي الرحم الاجتماعي من التمزق، وينضج حركات الإصلاح، ويرشدها، ويحقق في النهاية الاستقرار السياسي للمجتمع.

مناهجها وعلومها ومعارفها الإنسانية من أحادية وتسطيح وجمود وجزئيـة، وإذا كنا قد شاهدنا على مدى القرون كيف أخفقت محاولات الإصلاح والنهضة في تحقيق أهدافها السامية لتجديد طاقة الأمـة وتصحيح مسارها؛ فيصبح السـؤال الملحُّ هنا هو: كيف المخرج؟ وكيف يمكن تجديد الطاقـة وإصـلاح المسيرة وإحداث التغييـر؟ وما الأسـلوب الإصلاحي المهم الذي لم يلجأ إليه -بشكل فعَّـال- مشروع الإصلاح الإسلامي حتى الآن، ضمن ما لجأ إليه من الأساليب والوسائل؟

وعلينا أن نبدأ من البداية، وهي ماهية الإشكال، وماهية المطلوب، وماهية التحدي الذي تواجهه الأمة. وإذا كان لبُّ الإشكال هو القدرة على التغيير، والسلبية وغيبـة المبادرة والإبداع، والاستكانة والخنوع، وضعف الطاقـة الوجدانية والشجاعة الأدبيـة وضعف الكرامـة الإنسانية، وغيبةَ العقلية العلمية الإبداعية وروح الفعل والمبادرة، وإذا كان الإشكال في النهاية -وبشمول- هو غيبة إنسان الكرامـة والشجاعة والبذل والنصرة وقدرة أداء العلم والمعرفـة، فالجواب أن المطلوب لا بدّ أن يكون هو التغيير في طبيعة البناء النفسي والوجداني لهذا الإنسان ولا بدّ من العمل على تشكيل العقلية العلمية الإبداعية الإيجابية البنّاءة المسلمة، بكل ما تمثّله هذه العقلية من مبادئ وقيم ومفاهيم وتصورات توحيدية استخلافية سامية.

وهكذا يستحيل التغيير الحقيقي، وتفشل جهود الإصلاح الطموحة في تحقيق أهدافها، لأن خطاب البالغين لا يغير قواعد بناء أنفسهم، ولأننا، بقصر خطابنا على البالغين، لا نحدث التغيير التربوي الضروري في نفوس الناشئة.

كيف نفهم الخطاب الإسلامي التربوي:

لقد تعدَّدَ الخطابُ الإسلامي على عهد الرسالة بتعدّد المقامات، وتعدّد المخاطبين، وتعدّد الأحوال والأبعاد والغايات، فكان بذلك خطاباً فعّالاً مؤثراً. وكان من أهـم أسباب ضعف الخطاب الإسلامي اللاحق ضعف خبرة أصحاب هذا الخطاب، وضعف إدراكهم لأبعاده، ولأحوال المخاطبين وحاجاتهم؛ وهذا جعلهم كثيراً ما يخطئون فهمَ ذلك الخطاب، وفهمَ حقيقته ودلالاته ومقاصده، مما خلط تلك الأبعاد في خطابهم، وشُوّهه، وأضعفَ أثره، وحوله إلى خطابٍ نظري، كثيراً ما تأتي آثاره على غير ما قصد إليه.

ضعف الدراسات الإنسانية أدى إلى خلط الأبعاد والمجالات:

أدّى ضعف الدراسات الإنسانية في عصور الأمة المتأخرة إلى ضعف الفكر الإسلامي، وإلى خلط الأبعاد والمجالات المختلفة. وقد لمستُ في قضايا عديدة آثار خلط الأبعاد والمجالات والأحوال، وكان آخرها ما بسطتُ جوانبَه في دراسة تناولت قضية العنف وإدارة الصراع السياسي من منظور إسلامي، وقد صدرت في كتاب عن المعهد العالمي للفكر الإسلامي. وقد بيَّـنتُ في الكتاب أن من أهم الأسباب التي عوقت مسيرة الإصلاح والتصحيح الإسلامي قضية الخلط بين بُعْدِ إدارة الصراع السياسي داخل المجتمع، وبين الصراع السياسي الذي يدور بين المجتمعات، أو بمعنى آخر الخلط بين مفاهيم السياسة الداخلية والسياسة الخارجية، فكان المسلمون بهذا الخلط كمن يضعون السيف في غير موضعه، ويصرفون الأمر إلى غير غايته.

وسبق أن بيَّـنتُ هذا الإشكال المنهجي في الفكر الإسلامي في دراسة صدرت في القاهرة عن "نظرية الإسلام الاقتصادية" تناولتُ فيها قضية الاقتصاد الإسلامي ومبادئه الأساسية، والسياسات التي اتخذها النبي ﷺ لتطبيق تلك المبادئ في ظروف عصره وإمكانات زمانه، ومعرفة المؤثرات في تلك السياسات ومقاصدها، وكيف نستفيد منها في رسم سياساتٍ تناسب ظروفَ عصرنا وإمكاناته. وبيَّـنتُ في ذلك المبحث أنّ من أهم أسباب الأخطاء في فهم مقاصد الاقتصاد الإسلامي وأسباب انحرافات تطبيقاته اللاحقة، هو الخلط بين قواعد الاقتصاد الداخلي وضوابطه، وقواعد الاقتصاد الخارجي وضوابطه، ولذلك لم يكن مستغرباً أنّ ذهناً إسلامياً نيِّـراً هو ذهن ابن حزم الأندلسي يفتي بأنّ حديث مزارعة رسول الله ﷺ ليهود خيبر على نصف الثمر قد نسخَ كل أحاديث تحريم المزارعـة في المدينة، والتي كان الرسول ﷺ قد وصفها بأنّها ربا، وكان سبب النسخ عنده أنّ ذلك آخر ما فعله الرسول ﷺ مع اليهود في خيبر بشأن المزارعة، من دون أن يتبين ابن حزم أنّه خلط بين البُعد الداخلي والبُعد الخارجي للاقتصاد.

فالقواعد والاعتبارات التي تؤخذ في الاقتصاد الخارجي هي غير القواعد والاعتبارات التي تؤخذ في الاقتصاد الداخلي، والخلط المنهجي بينهما يؤدي إلى خطأ النظرة وخطل الفكر.[1] وإذا كان من الصعب على الدارسين

(١) أبو سليمان، **العنف وإدارة الصراع السياسي في الفكر السياسي الإسلامي بين المبدأ والخيار: رؤية إسلامية**. مرجع سابق. انظر أيضاً:

- أبو سليمان، عبد الحميد أحمد. **نظرية الإسلام الاقتصادية: الفلسفة والوسائل المعاصرة**، القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٩٦٠م. =

خاصة، من غير أصحاب الخبـرة والدراية بتسيير شؤون المجتمعات والدول وتخطيط اقتصادياتها وإدارتها، أن يتبيّنوا هذه الفروق الدقيقـة، فإنّ الفكر الفلسفي النظري في ظروف زمان ابن حزم، وطبيعة المعرفة وأُحادِيَّتها، قد فوَّتا على هذا الذهن النابه أن يلتفت إلى أنّ تصرفاً واحداً ومع قوم غير مسلمين، وفي كيانٍ ومجتمعٍ منفصلٍ ومُفاصِلٍ ومعادٍ لمجتمع المسلمين، يطلب أبناؤه أن يستغلوا أرض المسلمين التي سوف يجلون عنها؛ يصعب أن يُفهم منه إلغاء سياسة ثابتة على مدى سنين داخل مجتمع المسلمين في المدينة، فتأتي ممارسةٌ وحيدةٌ في ظروف مغايرة لكي تبيح ما كان ممنوعاً، وتحل ما كان محرماً، وتجعل الربا فجأة ومن دون مقدمات حلالاً طيباً.

تعدّد الخطاب بتعدّد المخاطبين:

وإذا دققنا النظر فإننا نجد أن خطاب الوحي الإسلامي قد تعدّد بتعدّد المخاطبين، وبتعدّد أبعاد الوجود، وبتعدّد الحاجات. فهناك الخطاب العام، والخطاب الكوني الأزلي، وهناك الخطاب الزماني والمكاني الحركي، وهناك الخطاب العقلي التفكّري، وهناك الخطاب النفسي الوجداني الوعظي للمؤمن، وهناك الخطاب الزاجر المتوعد للمكابر المعاند، وهناك خطاب الدعوة المرشد الموجِّـه المبشِّر للمؤمن العامل، وهناك الخطاب التربوي الراعي الودود الموجَّـه إلى الطفل والناشئ، وهناك خطاب السعة، وهناك خطاب الضرورة والحاجـة، وهناك خطاب السياسة والحكم، وهناك خطاب البسطاء، وهناك خطاب

- Abu Sulayman, AbdulHamid Ahmad. "The Theory of the Economics of Islam," *Journal = of Economics and Management*, 6, no. 1 & 2, Kuala Lumpur: International Islamic University IIUM, 1998.

القادة الحكماء، وهناك خطاب عامّة البشر، وهناك خطاب النبوة والرسالة.

ولكل خطاب طبيعته ومقاصده التي يجب أن تؤخذ في الحسبان في فهم ما يلابسه من الظروف والمؤثرات وتأويلها؛ ولذلك فإنّ النظر إلى تعدّد الخطابات بتعدّد المخاطبين على أنه قضية صدقٍ وكذب، أو قضية ناسخٍ ومنسوخ، إنّما يدلّ على السطحيةِ وضعف الفكر.

لذلك فإنّ من أخطر ما يقع فيه الفكر تسطيح الخطاب في توليد الفكر وبناء المجتمع. وقد تحدثنا فيما سبق عن خطابٍ واحدٍ تختلط فيه أبعاد الخطابات وتتلاشى منه طاقة البناء والتأثير؛ بسبب ما يسوده ويسري في حناياه من الإرهاب النفسي الديني الذي صبغ الفكر الإسلامي في عهد العزلة والفصام، إلى جانب الإرهاب المادي السياسي الذي صبغ سياسة الحكم؛ وذلك بسبب ما أصاب الفكر والحكم من ضعف وتدهور، وبسبب الفصام بين الفكر والسياسة، وغيبة الممارسة عن الفكر من جانب، وغيبة الفكر عن الممارسة من جانب آخر.

وفي جو العزلة والفصام كان لا بدّ من أن يقع الفكر الإسلامي في الخلط بين الخطاب الزماني والمكاني لعهد الرسالة، وبين الخطاب الأزلي الديني الإلهي، أي خلط الثابت بالمتغير، وكان لا بدّ -بسبب العجز الفكري- من خلط خطاب الزجر والوعيد والتهديد بخطاب الإرشاد والتوجيه، وخلط خطاب الكفار بخطاب المؤمنين، وخلط خطاب النبوة والدعوة بخطاب الحكم والسياسة، وخلط خطاب القادة والحكماء بخطاب البدائيين والبسطاء،

وخلط خطاب السعة بخطاب الضرورة، وخلط خطاب رعاية الطفل بخطاب مسؤولية البالغ وضبط سلوكه.

وقد كان ذلك الخلط أداة ضرورية أملاها العجز الفكري، وضمور الرؤيـة العلمية، وجزئية المنهجية النصية اللغوية الواهية الصلة بالدراسة العلمية الاجتماعية الشمولية السننية، حتى تحتفظ الصفـوة الفكرية بموقعها، على الرغم من عجزها، وحتى تؤدي دورها ولو بالحد الأدنى، حمايةً للمجتمع من الفوضى الشاملة والانهيار الكامل.

الآثار المدمرة لسوء توظيف قدسية الخطاب: نفسية العبيد:

لقد أمكن بواسطة الخلط في الخطاب، وتوظيف القدسية لخدمته، أن يسود خطاب الإرهاب الفكري لفرض المتابعة الفكرية، وتكميم الأفواه، وفرض الجمود، وتطويع النفوس لهذا اللون من الفكر والثقافة والصفوة التي تحمله. وقد استفادت السلطة السياسية الاستبدادية العاجزة من هذا الخطاب، ومن آثاره النفسية المدمرة، لكي تسلم العامةُ قيادَها، وتستسلم لأقدارها من التسلطات والمظالم والمفاسد، حتى تكونت لدى عامة الأمة "نفسية العبيد" التي أسلست القياد، وجعلتها تركن إلى قهر سيدها، وتحمي لـه سياج سجنها، وتنعى غياب جلاديها، حتى رأينا -بعد زوال العهد الاستعماري وسط الفوضى الضاربة أطنابها- من كان يأسف على ماضي "السيد" الاستعماري، وما نشاهده كثيراً من خروج جمع علامة الأمة وهي تهرول على طبول أكاذيب الإعلام في جنائز "الكبار" من سادتها وجلاديها دامعة العين، تذرف أحاسيس الضعة والضياع.

إنّ خطاب الإرهاب النفسي، وتكميم العقل، وإخماد الفكر، وإنكار الخيار، وفرض الرأي والقناعـة، باب ظاهره الرحمة بما يتلفع به من رداء القداسة، وصناعة السفسطات البلاغية الزائفة، وادعاءات المصالح الموهومة، أمّا باطنه -بغض النظر عن النوايا والأسباب التي أملته- فهو في نهاية المطاف حَجْرٌ على العقل، وإنكارٌ للمعرفـة، واستعبادٌ للضمير، وكهانةٌ على الروح، وسدانةٌ على التخلّف.

لقد توجه الخطاب الإسلامي التقليدي بالإرهاب النفسي لدرء الانهيار والفوضى، وبغرض تحكم الصفوة في جمهور الأمة وإخضاعها لواقعه وسطوته. وقد استهدف الخطاب جمهور البالغين، وأهمل الصغار والناشئة، وهمَّشهم، واصطبغ في كلّ الأحوال بلغة الوعيد والإرهاب. وكان من أهم أدواته خلط خطاب المؤمن بالكافر، وخلطُ الثابت بالمتغير، وتوظيفُ علوية قداسة النص لإرغام العقل المسلم على تجاوز رؤيـة الواقع وتلمس السنن، حتى تقبل النفوسُ والعقولُ المسلمةُ المتناقضاتِ، ويستسلم المسلمون لما "يضرهم ولا ينفعهم" من الخرافات والأساطير؛ فضاع -ضمن ما ضاع- الاهتمامُ بالخطاب النبوي الودود الوجداني النفسي التربوي للطفل، وفهمه وإدراك وسائله ومراميه التي تربّي فيه الإيمان والشجاعة وروح الجهاد والمبادرة؛ حتى تصبح اهتمامات السيرة النبوية[1] ونصوصها ممّا يكاد ينحصر

(١) يجب إعادة كتابة كتب السيرة النبوية لأغراض تعليم الناشئة؛ بحيث تركز على ذات الرسالة ومقاصدها ومناهجها في ضوء واقع المجتمع المسلم وإمكاناته وحاجاته وما يواجهه من تحديات، لكي نضع أمام الناشئة نموذجاً حياً، فتمثّل "مكة" مرحلة إرساء القواعد والمفاهيم =

في شؤون خاصة النفس والذكر ووصف الغزوات.

الخطاب التربوي والخطاب القانوني: نظام العقوبات نموذجاً:

سنختار خطاب نظام العقوبات الإسلامية نموذجاً لتوازن الخطاب الإسلامي، وتعدّد أبعاده وإيجابية أهدافه في مساعدة الإنسان المسلم على ممارسة الحياة فرداً وجماعة في إيجابية وأمن وطمأنينة، والأخذ بيده، في حدود طبيعته الإنسانية البشرية، للنماء والعطاء والوفاء بالمسؤوليات، وقصد الخير والبر والكرامة.

ذلك لأن هذا الخطاب أكثر من أي خطاب آخر، في العصور المتأخرة خاصة، أدى لدى الأصدقاء والأعداء عل حدٍّ سواء إلى كثير من الخلط وسوء الفهم وإغفال دلالات النصوص، على أساسٍ من فهم الطبيعة البشرية ومقاصد الشريعة في توجيهها والتعامل البنَّاء معها؛ بهدف تحقيق ممارسة حياة خيِّرةٍ فعَّالة.

إن المتأمل في طبيعة النفس البشرية والباحث الدارس لخفاياها، وكذلك المتأمل في خطاب العقوبات في الإسلام، يدرك حقيقةً معنى الخطاب الإسلامي وتنوعه والغاية من كل أنواعه، بما في ذلك خطاب العقوبات، فيجد

= وإعداد القيادات وتمحيص المعادن، وتمثّل "المدينة" مرحلة بناء المجتمع والأمة والمؤسسات، وفيها وقعت أحداث ومعاناة، وقامت حروب ومعارك وغزوات. فلا تكون السيرة إذن مجرّد سردٍ لسلسلةٍ من الصراعات والمعارك والغزوات حتى تبدو وكأنها محارب وغاز، فيروج لها المستشرقون بمقولة انتشار الإسلام بالغزو (الفتح) وحد السيف، وبذلك تصبح الرسالة هامشاً، والمعارك والمناوشات أصلاً وليست هامشاً أملته الظروف وعوارض التاريخ.

الخطابَ الإسلامي خطابَ أمنٍ وطمأنينة، لا خطاب رعب وإرهاب يشرع في يد السلطة لتسلطه على رقاب الناس، وتثير الرعب في نفوسهم، وتتصيد به أخطاءهم، وتتبع عوراتهم، ويكون بذلك أداةً بيدها لتحكم قبضة الإرهاب في نفوسهم، وتكوين نفسية العبيد في وجدانهم. وليس عبثاً ما أولاه الإسلام في هذا الخطاب من اهتمامٍ؛ لضمان العدل وطمأنينة نفوس الناس، وبالطبع فإن سواه من ألوان الخطاب أولى.

وليس عبثاً ما يشترطه هذا النظام من شهادة في جرائم الجنس وعقوبة الفشل في إثباتها، ذلك لأنّ العقوبة في جرائم الجنس هي في الحقيقة عقوبة للإشهار بالجرم أكثر منها للجرم بذاته، شأنها في ذلك شأن كل ما هو على شاكلتها من جرائم نوازع النفس وشهواتها وطباعها، والتي لا تملك النفوس ضمانة التحكم الدائم فيها، ومردّ أمرها في النهاية إنما يعود إلى التربية والضمائر، وذلك على عكس جرائم الدماء والأموال التي يقصد فيها الفعل ومنعه، وتتبّع المعتدين حماية للناس من عدوانهم وجرائمهم.[1]

إنّ غياب التفكر والتدبر العلمي المنضبط في السنن والواقع والوقائع أدى إلى خلط الخطاب، كما أدى إلى إهمال خطاب الطفولة وعدم إدراك أبعاده

---

(١) انظر:

- أبو سليمان، عبد الحميد. "الأمن والسلام الاجتماعي هدف نظام العقوبات الإسلامي: تأملات في نتائج دراسة اجتماعية لسكن الطلاب الجامعيين"، **مجلة إسلامية المعرفة**، العدد ١٤، خريف ١٩٩٨، ص١٦٧.

- أبو سليمان، عبد الحميد. **الإصلاح الإسلامي المعاصر**، القاهرة: دار السلام، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.

التربوية، بما يعني تجاوز الطفولة وعدم فهمها وفهم طبيعتها وتطور مراحلها ومعرفة دورها في التأهيل والتغيير، ومن ثم عدم فهم النهج النبوي وخطابه في الحرص على حقوق الطفل، ونهج تربيته، ونوعية خطابه، ودلالة ذلك الخطاب.

كاد خطابُ الإرهاب النفسي الذي ساد فكرَ الأمةِ ألا يترك في عقلية الأمـة إلا خطاب العقاب والإرهاب للطفل، ويبرره، ويجعله مشجباً يعلق عليه تعديات العجز والتسلّط والقهر، وذلك من خلال نصٍّ يُقصد به -إن صحَّ- التعامل مع حالة استثنائية شاذّة؛ ومن ذلك أن القائم على أمر طفل في العاشرة قد يضطرّ إلى أخذ هذا الطفل بشيء من العقاب، إذا ما أصرّ -رغم متابعة الأسرة لـه بالتعويد والترغيب- على عدم الصلاة: "علّموا الصبي الصلاة ابن سبع سنين واضربوه عليها ابن عشر."[1] بل إن هذا الحديث نفسه يوضح للناس أنّه لا يصح عقاب الطفل بدنياً، مهما كان الأمر مهماً، قبل أن يميّز ويعي أبعاد المسؤولية ويبلغ من العمر عشر سنين، وهو -بالطبع- ضربٌ غير مبرح أقرب ما يكون إلى الصفق غير المؤذي أو المرعب، إظهاراً لجدية الأمر وأهميته، بعد استنفاد كل الوسائل التربوية الممكنة، والذي يكون من العجب لو تمّت مع الطفل بالأسلوب الصحيح أن يضطر المربي إلى أيّ لون من ألوان الضرب والإهانة.

في ظلّ سيطرة هذا النص الخاص -إن صحَّ نصُّه وضبط لفظه- وفي هذه الحالة الخاصة، وفي جو خطاب الإرهاب، اتُّخذ مفهوم العقاب وسيلةً أساسيةً

(١) الترمذي، **الجامع الصحيح «سنن الترمذي»**، مرجع سابق، ج٢، ص٢٥٩، حديث رقم: ٤٠٧.

عامةً للتربية، ووسيلة تسيطر على مفهوم الأمـة للطفولة، والتهوين من شأنها، واستصغار أمرها وإهمالها، وأخذ نفوس الصغار الغضة بالإرهاب والعقاب، حتى تصبح مدخلاً عاماً لمفهوم عقيم للمعرفة؛ كما أدى ذلك إلى تغييب حقيقة كبرى من حقائق عهد الرسالة، وهي أنّ رسول الله ﷺ الذي كان أباً وجداً ومربياً ناجحاً لم يضربْ طفلاً قط في حياته، لأنّـه كان رحيماً ودوداً صبوراً في معاملة الأطفال يرعى حالهم، ويتلمس حاجتهم، ويدرك طبيعة نفوسهم وقدراتهم والمراحل التي يمرون بها، ويخاطبهم على قدر عقولهم ومداركهم.(١)

---

(١) روى البخاري عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان النبي ﷺ أحسن الناس خلقاً، وكان لي أخ يقال له: أبو عمير – قال: أحسبه فطيماً – وكان إذا جاء قال: يا أبا عُمير، ما فعل النغير – نُغَر كان يلعب به – فربما حضر الصلاة وهو في بيتنا فيأمر بالبساط الذي تحته فيكنس وينضح، ثم يقوم ونقوم خلفه فيصلي بنا. انظر:

– البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج٥، ص٢٢٩١، حديث رقم: ٥٨٥٠،

وروى أحمد في مسنده عن عبدالله بن الحارث قال: كان رسول الله ﷺ يصف عبد الله وعبيد الله وكثيراً من بني العباس ثم يقول: من سبق إلي فله كذا وكذا. قال: فيستبقون إليه فيقعون على ظهره وصدره فيقبلهم ويلزمهم. انظر:

– الشيباني، أحمد بن حنبل. **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٢٠، ١٤٢٠ هـ/ ١٩٩٩م، ج٣، ص٣٣٥، حديث رقم: ١٨٣٦.

وروى أحمد في مسنده عن رافع بن عمرو الغفاري قال: كنت وأنا غلام أرمي نخلاً للأنصار فأتى النبي ﷺ فقيل: إن هاهنا غلاماً يرمي نخلنا، فأُتيَ بي إلى النبي ﷺ فقال: يا غلام لم ترمِ النخل؟ قال قلت: آكل. قال: فلا ترم النخل وكُلْ ما يسقط في أسافلها، ثم مسح رأسي وقال: اللهم أشبع بطنه. انظر:

– الشيباني، **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، مرجع سابق، ج٣٣، ص٤٥٢، حديث رقم: ٢٠٣٤٣. =

لم يقصد الإسلام قط إلى إرهاب نفوس الناس وخلق "نفسية العبيد" فيهم، كما أنّ العقوبات لم يُقصد بها إرهاب الناس وتسقّط هفواتهم؛ ولكنها عامل من عوامل دعم إحساس جمهور الأمة بالأمن، ورعايتهم، والحفاظ على حقوقهم، ودعم قوى الخير في النفوس، وتنفيرهم من الشر والجريمة. فالأصل أن تُدرأ الحدود بالشبهات، لأن غاية العقاب مكافحةُ الجريمة، وليس العقاب في حدّ ذاته، ولا تصيُّدَ الهفوات، ولذلك كان الحض على العفو في الرقاب وتجاوز القصاص، ما دام العفو يتمُّ طواعية ولا تُخشى معه ثارات الانتقام، وفي تاريخ قضاء عهد الرسالة وعهد الراشدين خير شاهد ودليل على ذلك، كما أنه يقبل توبة السارق غير المصرّ. وفي حالة الإفساد في الأرض، فيمكن بدلاً للعقاب النفي من الأرض أو السجن فلا يعود ولا يطلق سراحه إلا أن يؤمن جانبه.

الخطاب النبوي التربوي نموذجاً:

دعونا نرى كيف عامل رسول الله ﷺ حفيدَه الصغير الحسين بن علي كرم الله وجهه، وهو النبي الإمام القائد، حينما كان قائماً يؤم جماعة المسلمين في المسجد، وقد صحبه حفيدُه إلى المسجد. إذ يعلو الطفل ظهر جده وهو ساجد، فيترك النبي ﷺ الطفل برهة ثم ينزله قبل أن يرفع من سجوده. وحين

= وروى الترمذي في سننه عن أنس قال: خدمت النبي ﷺ عشر سنين فما قال لي أفٍّ قط، وما قال لشيء صنعته لم صنعته، ولا لشيء تركته لم تركته، وكان رسول الله ﷺ من أحسن الناس خلقاً. انظر:

- الترمذي، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، ج٤، ص٣٦٨، حديث رقم: ٢٠١٥.

- الشيباني، **مسند الإمام احمد بن حنبل**، مرجع سابق، ج٢١، ص٥٢١، حديث رقم: ١٣٦٧٥.

يسأله الأصحاب عمّا دعاه إلى إطالة السجود، يجيبهم إجابة تربوية بالغة بأوجز عبارة وأعمقها: "ابني ارتحلني فكرهت أن أعجله حتى يقضي حاجته."[1] أمّا ما أمكن أن يدركه فكر العزلة وتهميش الطفولة، فهو فهمٌ مسطح يسير، فدلالة تلك الحادثة لا تعدو أنّ الرسول ﷺ يحب الأطفال، ذلك لأنّ مشاعر حبه ﷺ لحفيده لا يسوّغ -في حدِّ ذاته- إطالة السجود دون أخذه في الحسبان الناسَ من خلفه.

إنّ كل ما يعيه الطفل من الموقف هو نزول الجد الحبيب الودود إلى الأرض، فما كان منه إلا أن سارع فرحاً إلى اعتلاء ظهره للّعب والمداعبة. وهنا تأتي حكمة رسول الله ﷺ وإدراكه لطبيعة عالم الطفولة ومداركها وأساليب التعامل الودود معها، وهي فرصةٌ عمليةٌ يُعلِّم فيها رسول الله ﷺ أصحابه درساً بليغاً، فلم يسرع إلى إنزال الطفل اللاعب عن ظهره، لأنّ الطفل لن يدرك من الموقف إلا أنّ جدّه قد طرده وأبعده، خاصة وأنّ الجدّ في وضعٍ لا يسمح له بالتحدّث والشرح.

وحين يذكر الأقرع بن حابس لرسول الله ﷺ وهو يراه يُقبِّل حفيده الحسن، أنه ما قبَّلَ أحداً قط من أبنائه العشرة، يقول له ﷺ: "من لا يَرحَم لا يُرحَم."[2] وقد يُظَنّ أنّ المقصود فقط رحمة الله؛ ولكن من الوارد هنا أيضاً من الناحية النفسية التربوية أنّ من يقسو على الطفل في طفولته فسوف تناله قسوة

---

(١) النسائي، أحمد بن شعيب. **المجتبى من السنن**، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، حلب: مكتب المطبوعات الإسلامية، ١٤٠٦ هـ/ ١٩٨٦م، ج٢، ص٢٢٩، حديث رقم: ١١٤١.

(٢) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج٥، ص٢٢٣٥، حديث رقم: ٥٦٥١.

الصغير عليه حين يكبر ويشيخ، وأنّ الأمراض والعلل النفسية تتعاقب على مرّ الأجيال والنفوس بسبب الجهل والقسوة.

ولننصت إلى رسول الله ﷺ يخاطب الصبي عبد الله ابن عمه العباس فيقول لـه: "يا غلام إني أعلمك كلمات، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيءٍ كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف".[1]

فماذا نجد في هذا الخطاب؟ نجد معنيين تربويين أساسيين هما لبنة كل تربية سليمة للإنسان الحر المؤمن المعبّد للخير والإصلاح. أولهما: إقامـة علاقة حب وود وتَسانُد نفسي بين الفتى وربِّـه سبحانه وتعالى الذي يكلأ المسلم ويحفظه ويرعاه، وثانيهما هو تنمية روح الشجاعة والإقدام على أساس من حس القلب، واقتناع العقل، ومسؤولية الضمير، ومبادرة الاستخلاف "وإن أفتاك عنه الناس."[2]

---

(١) الترمذي، **الجامع الصحيح**، مرجع سابق، ج٤، ص٦٦٧، حديث رقم: ٢٥١٦.

(٢) أخرج الإمام أحمد بسنده عن وابِصَةَ بن معبَدٍ صاحبِ النبي ﷺ قال: جئتُ إلى رسول الله ﷺ أسأله عن البر والإثم، فقال: جئتَ تسأل عن البر والإثم؟ فقلت: والذي بعثكَ بالحق ماجئتك أسألك عن غيره! فقال: "البِـرُّ ما انشرحَ لـه صدرُكَ، والإثمُ ما حاك في صدرِكَ، وإن أفتاك عنه الناس". انظر:

- الشيباني، **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، مرجع سابق، ج٢٩، ص٥٢٣، حديث رقم: ١٧٩٩٩.

الخطاب النبوي هو خطاب تربوي للطفل ينضح بحب الصغير واحترامه، ولذلك كان رسول الله ﷺ لا يمر بالصغار إلا سلَّم عليهم.[١] فالبالغ اليافع الكريم من الرجال والنساء هم أنفسهم أولئك الصغار الذين كانوا في طفولتهم موضع الاحترام والثقة والتقدير، فإن شئت أن ترىٰ بالغاً كريماً فنشِّئ صغيراً علىٰ الكرامة والاحترام والثقة والتقدير.

هذه هي طبيعة الخطاب النبوي التربوي للطفل، يدعو فيه إلىٰ إظهار العناية والرعاية والحب والمودة والرفق بالصغير. بل إن عنايةَ رسول الله ﷺ تبدأ بالاهتمام بأمر الطفل قبل أن ترىٰ عيناه النور؛ ويكون ذلك في حسن اختيار الوالدين المؤهلين لحسن تربيته " أنكحوا الصالحين والصالحات."[٢] "تخيروا لنطفكم وأنكحوا الأكفاء..."[٣] و"تزوجوا الودود الولود."[٤]

لقد ضيّع المسلمون الخطاب النبوي التربوي الرؤوم في خطاب الطفل، وأحلّوا محلّه خطاب الاستهانة والقسر والترهيب، فلم يحفلوا بدراسة الطفولـة وتنميتها واستنبات القدرات والطاقات النفسية والجسدية الكامنة فيها، ولم يوظفوها لتحقيق التغيير واستعادة الطاقة؛ فذلَّت شعوبهم، وخمدت

---

(١) القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، ج٤، ص١٩٢٩، حديث رقم: ٢٤٨٢.

(٢) الدارمي، عبد الله بن عبد الرحمن. **سنن الدارمي**، تحقيق: فواز زمرلي وخالد السبع، بيروت: دار الكتاب العربي، ط١٠، ١٤٠٧ هـ، حديث رقم: ٢٠٨٦.

(٣) القزويني، محمد بن يزيد. **سنن ابن ماجة**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت: دار الفكر، (د. ت.)، ج١، ص٦٣٣، حديث رقم: ١٩٦٨.

(٤) السجستاني، **سنن أبي داود**، مرجع سابق، ج١، ص٦٢٥، حديث رقم: ٢٠٥٠.

مكامن الطاقة فيها، واستقدموا القبائل والمماليك والأغراب والأعداء للذود عن أنفسهم، وحماية بيضة دولهم، وليقمعوا شعوبهم ويجعلوها وأنفسهم -في خاتمة المطاف- فريسةَ سلاحِ جندهم وقهرِ أعدائهم.

obeikan.com